الامومة

الى سرّ المنفلوطي رحمهُ الله لكلِّ الله من مجموعة بحبيبها

قتيلةِ شوق غير ملحقها وصما

(للمتنبي يرثي جدّتهُ)

تُجُع ابراهيم الراعي في امهِ صبيًّا .. وكان ابوهُ شديد الضنّ بها جميل الرعاية لما بينهُ وبينها من العهود فاغتمّ لمناها وضاق صدرهُ بهِ ضيقًا شديداً حملهُ على هجرة مصر وكان مقيمًا بها . غير انهُ عهد قبل هجرتهِ في امر ابراهيم الى صديقةٍ لامهِ كانت تحبهُ حبًّا جمًّا وكان لها ابن يدعى خليلاً وبلغ من العمر مبلغ ابراهيم منهُ

وكنا يعلم مقدار ما يشق اللطيم[1] في الحياة. فانهُ لا يخطو خطوةً إلاَّ ويشعر بضعفهِ وضعتهِ وان عالهُ احد استثقل ظلهُ . ولكن هذا لم يكن من شأن ابراهيم فانهُ وان كان فقيراً ما شكا حالهُ يومًا ولا تذمّر منها اذ عُنيت بهِ كفيلتهُ عنايتها بوليدها . وكانت ابراهيم يحلّها من نفسهِ محل امهِ حتى صرّحت لهُ بحقيقة امرهِ فشكر لها مع صغر سنهِ اليد التي اتخذت عندهُ ووالتها المحبة والاخلاص ما دام حيًّا

وكان ابراهيم وخليل اخوي وفاء واليفي مودة وكأنّ الله قد صبّهما في قالب واحد من الحب والطهارة. وكانا قد تصافيا على المحبوب والمكروه الى ان ائتلفت ارواحهما ائتلاف زهرتين تعانقتا فنورتا معًا في كمّ واحد. ثم انهما قضيا عهد الصبا في ظل عيش ظليل وهما يسبحان للحياة و يسترسلان اليها بفيوض من الهم والحذر ويجتنيان منها اللذيذ الشهي من دون ان يجرّا كبيرة ولا صغيرة . وما كان ليسبق الى ظنهما اذا هما جاريا الطير من غصن الى غصن واسراهُ جذلين لعبين ان الدهر سيسعى بينهما و يأمر احدهما في حين

وظلّ هذا شأنهما حتى بلغا اشدهما وتخرّجا في مدرسة من مدارس العاصمة ثم احترف كلاهما الحرفة التي انبسطت لها نفسهُ . ولم يبرحا متلازمين في عهد الشباب ملازمتهما في عهد الصبا حتى كان يوم لجّهُ الله من يوم احسّ فيهِ ابراهيم ان خليلاً قد تغيّر حالهُ واضحى يهيم في عالم الغيب الى ما شاء الله ثم يُفيق قاتر الطرف . وكان خليل ان تحدث

(١) اللطيم من فقد اباه وامه

واطال الحديث حتى انهُ رشدهُ فهذّر وان ضحكهُ كان ضحكهُ خدعة وان اوى الى فراشهِ قضى ليلاً ساهراً فذهب الارق بهجة عينيهِ وردّ وجههُ كاسفاً مشخّراً مصفرّ اللون بارز الوجنتين

فاهمّ الامر ابراهيم الى ان صحت عزيمتهُ على استيضاح ما وراء ذلك الامر ولم يزل بهِ حتى وقع اليهِ ان خليلاً كان براقصة فرنسية ترقص في مسرح من مسارح القاهرة فاقبل ابراهيم على نفسه يشاورها ماذا يصنع لمحدثتهُ بان يعترض سبيل خليل

ثم ان ابراهيم قصد ذات اصيل الى المسرح المذكور ليستخبر عن تلك الراقصة واذا بها على الحال التي عليها غيرها من النساء الفرنجيات اللاتي يقدمن الشرق ليستمرئنهُ فيتوددن الى اهلهِ حتى اذا قضين منهم حاجتهن انصرفن عنهم عائبات ساخرات

وكانت هذه الراقصة الفرنسية جامعة لجمال الخلق واعتدال القد ورخامة الصوت فتلمس ابراهيم بعض العذر لصديقهِ بيد انهُ عزم على ان يقف في وجههِ ويحجبهُ عن نيتهِ . وبينما هو يفكر بباب المسرح فيما ينكر اذ بَصُر بخليل مقبلاً نحوهُ فانزوى ناحيةً . فدخل خليل المسرح لا يثني على احد وكان قابضاً على طاقة من الزهر ثم انهُ ما لبث ان خرج هو والراقصة وكانت تعتمد على يدهِ تارة وتستروح الزهر اخرى

ولما كان المساء عاد خليل الى داره وكانت امهُ راقده فخلا الى ابراهيم ثم قال لهُ ألا ابثك ذات سر يا اخي فقال ابراهيم اكفف نفسك الامر افتظن سرك مكتوماً وقد غمّت طيهِ حالك وشهدت بهِ عيناك من زمن بعيد ؟ فاضطرب خليل ثم قال وكيف ذلك فبسط لهُ ابراهيم ما وقع اليهِ وخليل ينكس رأسهُ كصبيّ أُخذ بذنبهِ فاطرق خجلاً . ولما فرغ ابراهيم من حديثهِ قال لهُ خليل ما كنت لاخالك ترقبني يا اخي افما ترأف بنفسك عن مثل هذا قال ابراهيم بلى والله وانما رقبتك غيرةً واخلاصاً واردت ان اتعرف شأن المرأة التي همت بها حتى اذا جهلت حقيقة امرها كنت انا حذيرك منها . قال اخبرني يا اخي أو ما رأيتها اجمل النساء واليهنّ عريكةً واصدقهن محبةً ؟ فانفضّ ابراهيم اليهِ رأسهُ ثم قال ارى الحب قد ختم على بصيرتك فعدت لا تميز الخير من الشر شأن كل مفتون ألا ويحك يا خليل لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من الغرور فان هذه المرأة لشيطان تسحرك بصوتها الحنون وجمالها الرائع ثم انها — وحياتك — تملق لك كيما تملك قلبك فاذا ظفرت بهِ استعبدتك واتلفت مالك سريعاً ثم لم تبطئ ان تهزأ بك وتذهب عنك . فعبس خليل مغضباً ثم قال كذبت على الله فلو عرفتها ما وقعت فيها مثل ما وقعت

واعلم انني عالقها حتى العبادة وانني ازمعت السفر واياها الى باريس غداً وفي جرابي مال كثير. فامتال ابراهيم للخبر وصاح في وجه خليل لقد والله اتيت امراً نكراً يُنزلك الناس من اجلهِ منزلة الفاسق فبضيع حفظك ولن تزال ذاك الذي فرّ وراقصة وان احتلت ان تجادل عن نفسك او تصلح من سمعتك

ثم طفق ابراهيم يشير على صديقهِ بما هو اجمل في السيرة واحمد في العاقبة . الاّ ان خليلاً اشتدّ برأيهِ فبكى ابراهيم ضياع مشورتهِ. فقال لهُ خليل لا تبكِ يا اخي انهُ يشقّ عليّ الفراق مشقتهُ عليك . قال انني لا ابكي لفراقك ولكنني ابكي على حال امك التي تنام الان مطمئنة هادئة فان استيقظت ودرت بما فعلتَ قتلت نفسها غمًّا والاّ عاشت شقية بائسة. وها انا اناشدك الله ان تعدل عن سفرك رحمة بها واشفاقاً عليها واذكر انها ولدتك وربّتك واحبّتك فانت عددت عليها هذه الامور فاعصها واشطر عليها الى حيث يوميك الهوى

بلغت تلك الكلمات من خليل فعاود الامل ابراهيم ولكن سرعان ما خاب ذلك الامل اذ ظهر الحب الفاسق على الحب الخالص وصرع حب العاشق لمشوقتهِ حب الابن لامهِ وفي ذلك من العبرة ما فيهِ

***

انسلّ خليل من بيت امهِ في تلك الليلة مسترقاً خطاهُ خشية ان يسمعهُ احد . وكان قد كتم الامر من امهِ مع وعدهِ ابراهيم ان يكاشفها بهِ . الاّ انهُ خطّ رسالة وداع على بطاقة دسها الاّ اقلها في مزلاج الباب الفاصل بين مخدعهِ وبين مخدع صديقهِ

وما اصبح ابراهيم حتى نهض من مضجعهِ وفي صدرهِ اشياء من حال خليل فاسترق الباب المذكور ونقر عليهِ باصبعهِ النقرة بعد النقرة . وانهُ لكذلك اذ فاجأتهُ كفيلتهُ فرابها الامر فعمدت الى الباب وفتحتهُ واذا البطاقة مشرئبة من المزلاج. فاخذت بها وقرأتها في خفوت ثم ادارت بعينيها من حولها واقامت لا تطرف كانما دُخل في عقلها ثم صاحت خليل وسقطت لوجهها مغميًّا عليها . فاحتملها ابراهيم الى فراشها مشفقاً ولم يزل بها حتى استفاقت ثم ناحت نوحاً منقطعاً الى ان اعيت فهجعت ملءُ جفونها . ثم انها لما تنبهت دعا ابراهيم بالطبيب واخبرهُ بالامر فقص الطبيب عن دائها ثم وصف الدواء وانصرف ... تأمل ابراهيم تلك المرأة المسكينة مكروب النفس ساعةً ولم يسعهُ إلاّ ان سأل الله

ان يلطف بحالها و يخصها برحمته الواسعة. ثم اعمل النظر في خطر الامومة وجلالتها وفكر كيف تشق الام كما بهناً ابنها وكيف تحمل على نفسها في سبيل طفلها تينه وهي تبذل له ذات يدها وتفديه بحياتها وكيف ينبغي للناس ان يطأطئوا لها الهامات اكباراً لها لانها ارفعهم مرتبة واجلبهم منفعة . ثم عاد ابراهيم وقال فيما بينهُ و بين نفسه ان الاخ يميل عن اخيه والابن يخرج على ابيه والعاشق يسأم إلفة عشيقته والام لا تجفو ابنها ولا تبرم به . فما اسعدها ان هي فازت بالاماني التي عقدتها بابنها وقت ان كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا وما اشقاها اذا كذبتها تلك الاماني وخدعتها . ومثلها مثل الذي يغرس غصناً رطباً و يتعهدهُ بالحرص عليه والعناية به زماناً عسى ان يزكو الغصن و ينوّر . فإن خيبت الغصن على غير الظنّ به كان غارسهُ أخيب الناس مسعى . . . . . ألا ان الامومة تطوي بين بُرديها ما تضمهُ الحياة من شقوة وسعادة وامل .

***

مرّ اربعة اسابيع على اليوم الذي فرّ فيه خليل من مصر وكانت امهُ قد مرضت مرضاً طواها واضناها . واما ابراهيم فما فتئ يبحث عن مصير صديقه حتى وافاهُ هذا الكتاب من باريس في ١٩ ابريل سنة ١٩٢٤ .

صديقي

اعتذر اليك من اخلافي ما وعدتك به فاني لم أُعيِّ ولم يسفري مخافة ان تحول بيني و بينهُ . ولعلك هوّنت عليها وطأة الامر فلم يقع في نفسها الاّ الوقع القليل .

اجل انا مذنب ولكني راضٍ عن ذنبي ومغتبط به وان علمت انهُ نال منكما كثيراً . انا سعيد ولا اخفي عنكما سعادتي . ولربما تلومني يا صديقي في ما فعلت ولكن لا لوم في الحب لان الرجل الذي لا يحب شبيه بغصن لا يحمل ورداً ولا شوكاً . واعلم ان الله خلق الرجل ثم سوّى قلبه وخصّهُ بالحب فلا خير في قلب يخفق بعاطفة غير عاطفة الحب والسلام

. .

من ابراهيم الى خليل

من القاهرة في ٣ مايو سنة ١٩٢٤

صديقي

ورد عليَّ كتابك وامك طريح الفراش يقيها الالم و يقعدها البكاء . فطويت كتابك

دونها خشية ان يزيد في علتها . ثم انني رأيت الاثرة تمشي بين سطور كتابك شأن كل امريء ملكت الشهرة على جوارحه فعاد لا يبالي اساء صنيعه ذو يه ام راقهم

قلت إنهُ لا لوم في الحب والامر غير ما تقول ما دام بين جنبيك حب لا تملك اليه نفسك ولا يطمئن بالك اليه . واني ارالك في هذا تضو نحو بعض اهل الغرب ظناً منك ان عملهم هو المدنية الحقة

اي خليل ان قساوة قلبك بلغت بك مقداراً جعلك لا ترتق بشعور امك فما من شفقة بين جناحيك ولا ايمان . ولا شك ان رقيق عواطفك قد حالت حباً يبتعبدك الاستعباد كله

صديقي بالله تدبَّر حالك واتق الله في ضعف امك ولا يفوتك انهُ قد اثقلها المرض وان الموت يدب فيها قليلاً قليلاً حتى لأني والله اخشى ان ينتزعها من بين يديَّ من دون ان أقوى على ردهِ . فما بيني وبينك من مواثيق وذكريات لترجمنَّ الى امك وان شككت في عفوها عنك فاعلم ان حب الام يملأ قلبها عطفاً والسلام

* *

من خليل الى ابراهيم

من باريس في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٤

صديقي

قرأت رسالتك فعلمت فيَّ افاعيلها ولعمرك لو إنَّبتني لشهر مضى مثل ما تفعل اليوم ما اكترثت لتأنيبك ولكنني تبصرت فيما فعلت فرأيت انني واهم في امري وانني اقترفت اثماً عظيماً واحترفت لنفسي بيدي حفرة لا خلاص منها

صديقي انكرت عليَّ حبي ورغبت اليَّ ان اكفَّ عنهُ بيد اني اسير بين يديهِ لا استطيع ان أدافعهُ

عزيزي انني شقي بحبي وابغضهُ ثم اريد الفرار منهُ وانا راغب فيهِ ... انني تعس : اذا انزويت في مخدعي شعرت بأني جانٍ على نفسي وعلى اهلي . وان حاولت التفكير في غير ذلك لم افلح كمحموم يتقلب في فراشهِ ظهراً لبطن علَّ ان يرقد وهيهات ان يغمض لهُ جفن

اي صديقي تمثل امامي صورتك وصورة امي فابصر ملامحكما واسمع صوتكما واشعر

بودكما وكانكما تقبلاني فازداد ألماً وحنيناً . ثم يتراءى لي الماضي فكأني في حماكما ابسط اليكما ذراعي والمسكما واحدتكما ثم انني لم البث ان افيق من حلمي واعود الى الحقيقة فيتهشم قلبي كأنهُ سقط من علٍ فاخرج الى الفلاة هائماً على وجهي حتى يقعد بي التعب فارجع في طريقي مكفهراً الوجه منقبض الصدر

اليك حالي وما اشقاها فارثِ لها مع عظم ذنبي ولقد كفاني حب يسترتي وان طال بي صرعتي .... ألا رعى الله ايامًا قضيتها سعيداً بين ام رؤوم نصبت حياتها لترعاني بعين ساهرة وبين اخ حنون لو وُهبت لي الدنيا وما فيها فداءهُ لأعرضت عنها قانعاً به راضياً والسلام

قبل عني يدي ابي شفاها الله

* *

من ابراهيم بن خليل

القاهرة في ٦ يونيو سنة ١٩٢٤

تضرع الى الله في شفاء امك وهي لن تشفى الاَّ اذا حققت املها الذي وصلتهُ بك وانت به اعلى عيناً مني وابصر . على انها تحيا بهذا الامل فان بقي بين جوانحك شيءٌ من الرحمة فتنبَّه

صديقي ما رأيت احداً قط يصبر على الشقاء والسعادة طوع يديه . انت تشقى في باريس فغادرها وارجع الى امك تضمن لك من نفسها السعادة وان اعظمك الرجوع فاعلم ان الامر ايسر مما في نفسك واذكر الابن الشاطر الذي شرد عن بيت ابيهِ ثم اشقى عما كان فيهِ فعاد تائباً من ذنبهِ نادماً على ما فرط منهُ مهيناً منكسراً لما جنى على نفسهِ . فأنِس بهِ ابوهُ واوسعهُ اناناً والسلام

***

مضى شهران على تلك الرسالة وابراهيم لم ينفك ينتظر الجواب عنها . فظن ان خليلاً عاجز عن ان ينفث من حبهِ مع كرههِ لهُ ثم انهُ خبَّر كنيلتهُ بذلك وحملها على الصبر وعلَّل نفسها بقرب اللقاء ولكنها كانت قد يئست من الامر فدنفت دنفاً شديداً حتى امست وهي تتمنى على الله ان يستأثرها برحمتهِ . وانها على هذه الحال اذ فاجأ ابراهيم هذه الرسالة

* *

باريس في ١٢ اغسطس سنة ١٩٢٤

صديقي

انبأتني اصلاي ان امي على خروج الروح فانيتك مقسماً عليك بكل عزيز عندك الاّ وافتني على حالها . بالله اخبرني هل أحزن الحزن عينها ثم استهل دمعها فوسم البكاء وجهها وخلّف بين عارضيه اثراً مثل الذي يخلف السحاب اذا اجتاز بالسماء ؟ أو لم تشعل حرقة الفراق شعرها شيباً ؟ او فقدت عيناها نظرة الحنان التي طالما كان لها وقع في قلوبنا ؟ وهل لرجفتيها تلك الحمرة التي كنا نقبلها فتزيدها احمراراً ؟ او لا يزال الابتسام يزين ثغرها كما كان يزينهُ حينما كانت ترقصنا بعين ملؤها العطف ونحن نلعب ونرتع ؟ وهل لصوتها العذب ذلك الرنين الذي كانت تهيّم بهِ في رؤوسنا فنهجع آمنين ؟

آه ! اني احنُّ الى قبلة من قبلاتها واهوى الى ثوب حجرها لانام وادع النفس مطمئن القلب . فالآن الآن علمت ان حب الام اخلص حب واصدقهُ واما ما تعقدهُ يد الشهوة فهو كاذب يفنى مع الشهوة كنار رقّعتها فملاصعيرها ثم امسكت عنها فخمدت

صديقي ! توقعت الدعة في الشهوة فالفيتها في الخلوة والسكون . وتوهمت انهم يحبونني لنفسي وانما هم يحبونني لغيرها . وحسبتني منفرداً بحبي فوجدت لي فيهِ شركاء . يا ليتني استمعت لك عند ما نصحت لي

عزيزي : خلت العيش بين اهل الغرب في استطاعة الشرقي فوجدت الامر شديد المطلب لان طبيعتنا نحن الشرقيين تختلف اختلافاً بيناً عن طبيعة اهل الغرب فان لم ينطر احدنا على اخلاقهم شق عليهِ ان يألفها . او لست ترى اليّ كيف قدمت باريس كريم النفس عالي الهمة ثم ما عتمت ان اعتدت عادات انتهت بي الى الافلاس والسأم ؟

صديقي ! ذلك ما وصلت اليهِ فليس لي مخرج من ان انبذ حبي واحضر وطني لكي استعطف امي لعلني اصادف منها جانباً رحباً فتقيل عثرتي باذن الله والسلام

* *

لما تلقى ابراهيم تلك الرسالة قرأها على ام خليل فانتعشت روحها واخذت ترغب في الحياة مقدار ما كانت ترغب عنها . الاّ أن المرض كان قد هاج بها فبعث ابراهيم برسالة الى خليل يبسط لهُ كيف اثر كتابه في نفس امهِ و يسألهُ القفول لئلاّ يسبقهُ القضاء اليها

***

مالت الشمس الى الغروب وهبّت الريح كانما تزعم طرد الشمس من السماء والطبيب

يحاول ان ينقذ ام خليل من قبضة الموت. وكانت ام خليل تسأل ابراهيم من حين الى آخر هل اتى !! وكانت عند سكوت ابراهيم تناوه وتبكي ثم انها قالت لهُ ان لم يتح الله لي ان اراهُ فبلغهُ انهُ آخر من فكرت فيهِ قبل موتي واني عفوت عنهُ العفو الجميل . ثم قبلتهُ وقالت لهُ اليهِ هذه القبلة فهي آخر عهد لي من الحياة !! ثم غُشي عليها فاقبل ابراهيم والطبيب ينعشانها وهما لكذلك اذ سمعا وقع اقدام في ساحة الدار فخفَّ ابراهيم اليها واذا امامهُ .. خليل !! فوقف كلاهما صامتاً جامداً كالخشب المسندة لحظة ثم تعانقا طويلاً ونظر خليل الى ابراهيم نظرة الرجل الباطن . فبادر ابرهيم الى طمأنينتهِ وقال لهُ . امك حية تنتظرك لتضمك الى صدرها فتطاير قلب خليل فرحاً ودخل عندع امهِ ولما رآها مغشيًّا عليها اشار الى الطبيب ان تنحَّ للفعل فشرع خليل يقبل امهُ ويناجيها في رفق ولين :

اماه !! ها بين يديك ابنك الذي اذنب اليك فتاب .. اماه ! اني لمَّا اكاشفك بما اضمر لك في قلبي واسلفي ما كاشفت نفسي بذلك من سلف لان الانسان لا يقدر شدة حبهِ قدرها الاَّ متى فجع بمن يحب او كاد .. اماه . أَلى سبيل عن حبك وانت التي كانت ابتسامتها نوراً يبعث فيَّ النشاط والشعور وانت التي كانت ترسل العبرات من قبل ان ابكي وتستضحك من قبل ان اضحك كأنا روحان في جسم واحد انت الصوت وانا الصدى؟.. اماه ! لا تظنيني كتوماً للنعمة كفوراً بها .. امَّاهُ ! اني استدررت درك وحييت بحياتك وشببت في حجرك فتأملت الدنيا من وراء عينيك وتمرفتها خلال بكائك . فان ضلالتك يوماً اذاً لا بد ان اهتدي اليك في غيرهِ

فكانت ام خليل تفيق شيئاً فشيئاً حتى راجعتها نفسها واذا بها تحدق الى خليل كانما قد عمَّت عليها معرفتهُ لشدة المرض عليها ثم انها عرفتهُ فاحتضنتهُ وصاحت بهِ انت انت خليل !!! .... آه يا بني : الحمد لله انهُ اذن في ان أراك قبل ان يقضي قضاءهُ فيَّ. فقال خليل باكيًا اماه ! لقد زللت عندك زلة تقطَّعت نفسي حسرات من اجلها واخطأت اليك خطيئة لا ادري أمغفرة انت عنها ! قالت بنيَّ لا بارك الله في ام ليس لابنها موضع رحمة في قلبها فإني عفوت عنك في اليوم الذي اذنبت فيهِ اليَّ ثم قبَّلتهُ قبلة طويلة كان آخر وتر من قلبها موقوفاً عليها .

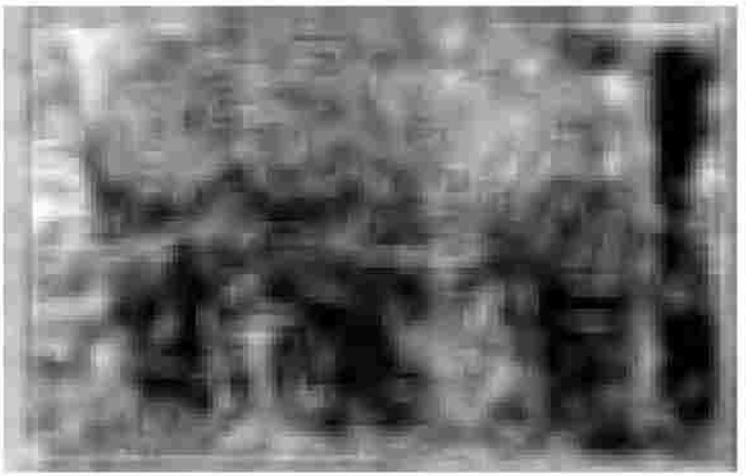

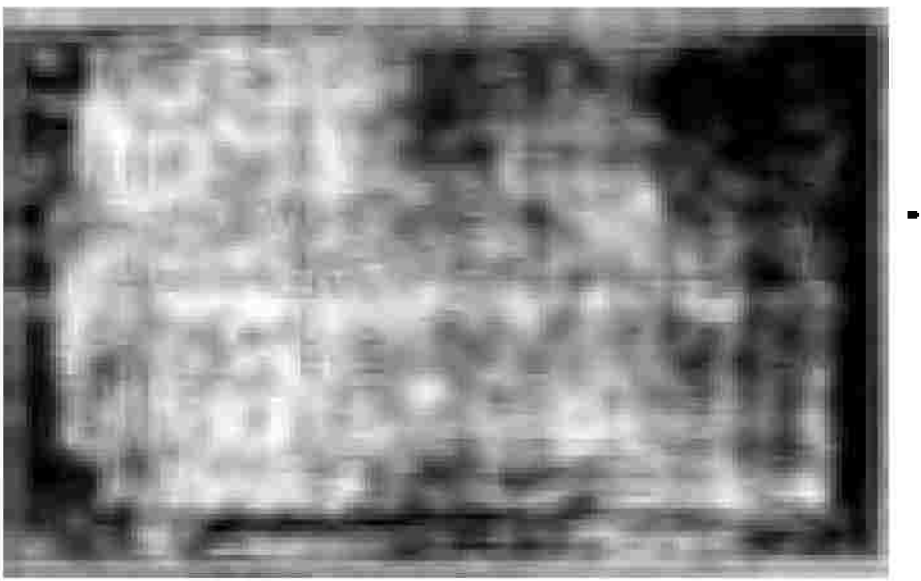

الديباجة: صورة جدران معبد نوت والبحيرة المقدسة في مدينة الأسرة: قطعة من الفرس الأحمر مأخوذة من بوزا من عهد الرعامسة الثاني، الأسرة الثالثة والعشرون

رأس تمثال لملك سنوسرت الثالث كشف حديثاً في مدمود

منظر جانبي لتمثال الاله منتو وقد كان اله الحرب في طيبة

الالاهة راتوي رفيقة الاله منتو

مقتطف بوليو ١٩٢٧، ٥

امام الصفحة ٥٣